مجلة أبوليوس
المجلد 10العدد 1–جانفي2023
الصفحات: 334- 346

بنية الفضاء الزماني في رواية "شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف

The Temporal Structure in the Novel "Eastern Mediterranean" by Abdel Rahman Munif

شادية بن يحي*
جامعة محمد الشريف مساعدية، سوق أهراس (الجزائر)
c.benyahia@univ-soukahras.dz

تاريخ الاستلام: 2022/12/05 تاريخ القبول: 2023/01/13 تاريخ النشر: 2023/01/31

ملخص البحث:

تمثل " شرق المتوسط" عملا فنيا روائيا متميزا، وقد جاءت في شكل خطاب سياسي معارض لنظام السلطة في المجتمعات العربية، ومن خلالها يهدف مؤلفها "عبد الرحمن منيف" إلى تعرية، وفضح أساليب القهر السياسي عن طريق تصويره لواقع القمع والاضطهاد والتعذيب داخل السجون الذي أصبح هو المسيطر على الحياة السياسية العربية. تتميز هذه الرواية ببنيتها السردية العميقة ويلعب الفضاء الزماني فيها دورا مهما، حيث يتعالق الزمن السردي بالزمن الفلسفي والنفسي ليصبح عنصرا فاعلا في تصوير الحدث وكذلك تصوير انفعالات الكاتب وأيديولوجية الكتابة عنده، وتأتي هذه الدراسة بغرض توضيح وتبيين تقنيات السرد الروائي من خلال التعامل مع الفضاء الزماني داخل الرواية لنصل الى نتيجة مفادها أن عبد الرحمن منيف قد برع في بلورة الفضاء الزماني كبنية واضحة وفاعلة داخل الرواية أثرت فينا تأثيرا جماليا بالغا ،وهذا ما يثير جملة من الاشكاليات:

كيف تعامل عبد الرحمن منيف مع بنية الزمن داخل روايته؟وإلى أي مدى استطاع أن يرسم معالم هذا الفضاء الزمني سرديا عبر سراديب شرق المتوسط المظلمة؟

الكلمات المفتاحية: شرق المتوسط، السجن، الفضاء الزمان، الاضطهاد السياسي، المثقف، السلطة، المنفى.

Abstract:

"East of the Mediterranean" represents a distinguished fictional artwork, and it came in the form of a political discourse opposing the regime of power in Arab societies. Through it, its author, "Abdel Rahman Munif" aims to expose the methods of political oppression by depicting the reality of oppression, persecution and torture in prisons that dominated the Arab political life. This novel is characterised by its deep narrative structure and the temporal space that plays an important role in it, where the narrative time is related to the philosophical and psychological time to become an active element in depicting the event as well as the writer's emotions and his writing ideology. This study clarifies and demonstrates the narrative techniques by dealing with the temporal space within the novel and make us reach the conclusion that Abdel Rahman Munif excelled in crystallizing the temporal space as a clear and effective structure within the novel, which affected us with a great aesthetic effect, and this raises a number of problems: How did Abdel Rahman Munif deal with the structure of time within his novel? And to what extent was he able to draw the features of this time space narration through the dark vaults of the eastern Mediterranean?

Keywords: Eastern Mediterranean, prison, space, time, political persecution, the intellectual, power, exile

* المؤلّف المراسل

مقدمة:

تمثل "شرق المتوسط" على مستوى الدلالة، السجن العربي الكبير، سجن القمع والاضطهاد الممارس بحق الإنسان العربي، ذلك الإنسان الذي تحول إلى هيكل فارغ يفتقر إلى جميع مسوغات الحياة، وفاقدا لأهم شروطها والمتمثل في الحرية.

انّ الرواية لا تشير إلى سلطة بعينها تضطهد المناضلين في الوطن العربي، وتختار عنوان" شرق المتوسط" في تعمية مقصودة بهدف تعميم القول باضطهاد الإنسان في الوطن العربي. والملاحظ أن حجب المكان يمتلك دلالة وكذلك أثرا في معالجة منظومة القيم العامة المتعلقة بالفرد والسلطة، وبالتالي يتحول القمع إلى معاناة شاملة لكل الوطن العربي.

وما نلاحظه أن رواية شرق المتوسط قد استخدمت التداعي، عبر نسق زمني متقطع تجاوز الحبكة التقليدية، ومضى ضمن تيارات الوعي ونقلات الذاكرة إلى الوراء وتداخلات في ذهاب البطل "رجب اسماعيل" بين لحظات زمنية متفاوتة، وينقلب نظام الحوادث المحكية ليتخذ مظاهرا وأشكالا مختلفة، انطلاقا من نقطة البداية التي يختارها السارد، والتي في ضوئها تنتظم باقي الحوادث الأخرى، ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، وهذا ما أثار جملة من الاشكاليات حول البنية الزمنية في هذه الرواية أهمها : ما هوالنسق الزمني الذي صمّمه منيف لفلك أحداث روايته "شرق المتوسط" ؟ وما هي طبيعته؟ وهل كان توظيف البنية الزمنية توظيفا دلاليا مقصودا أم أنه ذا أبعاد جمالية ؟

وتكمن أهمية دراستنا هذه في محاولة رصد تداعيات البنية الزمنية في هذه الرواية ، حيث شكل العزف على أوتار الزمن متعة الرواية الحديثة، وفيها تراجع زمن السرد التقليدي، الذي كان مساره محددا ببداية ونهاية، ويتتبع خط سير واحد من الماضي إلى الحاضر ليحل مبدأ التلاعب بالزمن، الذي أصبح نكهة القص الحديث، لهذا ظهر التضارب بين الزمن، الكرونولوجي للأحداث، وبين الزمن القصصي، مفترضا تقنيات يمارسها الراوي للتحكم في زمام السرد، وهذا ما أقدم عليه "عبد الرحمن منيف" في روايته .

1- بنية النسق السردية لشرق المتوسط:

1-1- التناوب السردي :

يعتبر "عبد الرحمن منيف" واحدا من أولئك الروائيين الذين قد حملوا على عاتقهم مهمة الذود عن حقوق الإنسان العربي، وكشف تلاعبات السلطة، وممارستها الوحشية، لقمع وكبت الحرية الفردية ،ونجد "أنّ معظم أعماله الروائية تكاد أن تكون مشاركة فعالة في النضال السياسي العربي، بما تفجره من إضاءة للوعي، بل ودعوة تحريضية للفعل، دون أن يقلل هذا من قيمتها الفنية الرفيعة" [(1)].

وقد اخترت رواية "شرق المتوسط" من بين أعمال عبد الرحمن منيف، لتكون محور هذه الدراسة ، وهي رواية تنتمي إلى سبعينات هذا القرن ويعالج عبرها منيف قضية السجون العربية، وما يمارس فيها من قمع للحريات، وكذلك مسألة التعذيب والتشويه الجسدي

ويستظهرنا "عبد الرحمن منيف" في هذه الرواية، بمقدمة غير اعتيادية حيث استهلها بمجموعة من مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وتشمل المادة الأولى، والثانية، والثالثة وهي مواد تنص على حرية الأفراد والمساواة بينهم، وحقهم في الحياة، وتأمين سلامتهم. والمادة الخامسة والعاشرة، الثانية عشر، و الرابعة عشر،

وهي تنص على حق الإنسان في الحياة دون تعريضه إلى التعذيب والتشويه، وقد أردف هذه المواد بأبيات مختارة من شعر "بابلو نيرودا" توحي بالجروح التي لا تنسى.

وتتضح لنا من مواد حقوق الإنسان، والجروح التي لا تنسى خلفية الرواية فيصبح لدينا نوع من المقابلة الدلالية الجامعة، بين الواقعية المباشرة المتمثلة في البنود، والمتخيل الفني الذي تمثله أبيات "نيرودا" الشعرية، ثم تتشكل لنا الرواية عبر بنية سردية ثنائية يتناولها كل من رجب وأخته أنيسة.

وتدور أحداث الرواية حول شخصية رجب، وهو شاب مثقف مولع بالقراءة وقرض الشعر، نشط سياسيا ضد السلطة، مما أدى به إلى الوقوع في براثن السجن، وذلك بعد شهر واحد من تخرجه من الجامعة. قضي مدة خمسة سنوات خلف القضبان، تلقى خلالها شتى أنواع التعذيب، والتشويه، و الإهانة، لكنه تحمل وناضل في سبيل الكلمة. وانتهى به الأمر إلى الإصابة بمرض مزمن وهو "روماتيزم في الدم" أدى إلى انهيار جسده، الذي قاده إلى السقوط عن طريق توقيعه تلك الورقة الصفراء اللعينة مقابل الإفراج عنه قصد العلاج خارج الوطن، ويسافر للعلاج ولكن يد السلطة تمتد إلى عائلة أخته، فتسجن "حامد" زوجها، فيعود رجب وهو متسلح بالحقد، وينتهي به الأمر مقتولا، ولكن موته كان بحثا جديدا عن طريق "حامد" و"عادل" ابنه رمز المستقبل، وتنشر أخته أنيسة الأوراق خارج البلاد رغبة منها في دفع الأمور إلى نهايتها.

وقد امتدت الرواية على مدى ستة فصول متناوبة بين "رجب" و "أنيسة":فالفصل الأول هو فصل رجب فوق المركب اليوناني آشيلوس في طريقه إلى فرنسا، بعد إطلاق صراحه، يسترجع فيه مشاعره وأيام عذابه ولحظة سقوطه.

وتخترق مشاعره جسد السفينة التي يركبها وهي تشق أمواج البحر "..... آشيلوس تهتز، تترجرج، تبتعد بحركة ثقيلة تشبه رقصة ديك مذبوح، والميناء عند الغروب، يستقبل الأضواء الرخوة: يعلكها بسأم ثم يتركها فتسقط، ترتجف فوق الماء، ثم تذوب، وضجة البشر في تلك الساعة المليئة باللاجدوى، أشبه ما تكون بأصوات جراء مخنوقة، أما الأيدي بحركتها البلهاء، فقد بدت كالخرق البالية تهزها ريح لا ترى، والوجوه، آه لشد ما كانت تعاسة الوجوه: عيون صماء، ثقيلة، أفواه مطاطية، تشبه فروج الحيوانات بحركتها المتشنجة ... وآشيلوس المجدولة من العبث و الدوي تزحف.... تبتعد..."[2].

تحيلنا حركة آشيلوس السفينة إلى بؤرة الرواية، إنها السقوط والنهاية البائسة، نهاية رجب المناضل الصامد بعد ذلك التوقيع اللعين.

أما الفصل الثاني وهو فصل يبرز فيه صوت أنيسة، صوتها الداخلي يسرد لنا خروج رجب من السجن، وعزمه على السفر، وتسترسل في استعادة أحداث كل السنوات الماضية وفترة سجنه.

ويعاودنا صوت رجب في الفصل الثالث وهو يرحل على متن آشيلوس ويتذكر لحظات التعذيب داخل السجن وبشاعة تلك اللحظات.

وتستقبل أنيسة في الفصل الرابع رسائل رجب، وتصف معاناتها وخوفها من مرضه، وهواجسه المعششة داخل تفكيره. وكانت آخر رسائله تحمل فكرة كتابة رواية متعددة الأصوات حول التعذيب اللاإنساني.

ويعود صوت رجب في الفصل الخامس متذبذبا بين الماضي، والسجن، وعلاجه في باريس، أين تكمن الحرية والحقوق، ولكنه من جديد يحس بمرارة السقوط. ويعود إلى الوطن وينتهي به الأمر بعد اعتقاله إلى الموت.

و تستوقفنا أنيسة في الفصل السادس لتصف موت رجب، وتعمل أخيرا على نشر أوراقه التي تمنى لو تحرقها.

ونلاحظ على هذا البناء المتناوب، أنه يعتمد على الذاكرة اعتمادا كليا حيث يتدخل الماضي في تركيب اللحظة الراهنة ويجرها إليه. وبذلك يبدو تيار الأحداث التي تلت الخروج من السجن معاكسا لتيار الذكريات المتداعية.

1-2- السقوط والانحدار(زمن الهزيمة):

حكم على "رجب" السجين السياسي بالسجن مدة إحدى عشر عاما، وهو حكم تعسفي، وقد أدين لا لشيء سوى أنه وقف في وجه السلطة، فقط من أجل كلمة حق لصالح الفئات المضطهدة من شريحة الشعب. وقد قضى رجب منها مدة خمس سنوات، تلقى خلالها أسوأ أنواع التعذيب، ولكنه كان صامدا، وتحمل، وصمت، وكان صمته هو سلاحه في التحدي لجبروت السلطة. لكن جسده انهار ولم يعد يتحمل، فوقع على تلك الورقة الصفراء اللعينة، التي أعلنت سقوطه: "...ارتجفت و أن أوافق، بيني وبين نفسي أو الأمر، ثم بيني وبينهم، حتى إذا وقعت على تلك الورقة الصفراء شعرت أن كل شيء في ينهار ويسقط... وسقطت، ورافقت ضجة السقوط موجات الغبار التي حملتها أفواههم إلى كل مكان، تبشر الناس بنهاية رجب إسماعيل البائسة؟"[3].

لقد كان ذلك التوقيع هو بداية السقوط، إنه توقيع على ورقة صفراء، واللون الأصفر إشارة إلى السلطة، ولون السجن أصفر، والصفرة تعني الشحوب والموت البطيء إنها نهاية رجب. التي أدركها: "كنت أبتسم ابتسامة شاحبة عندما وقعت شهادة وفاتي[4].

ويعني سقوط رجب، سقوط الإنسان وانهيار الإرادة. ويحمل هذا السقوط ضمنيا فقدان الإنسان إنسانيته وذاته لأنّ"سقوط الإنسان مثل سقوط أبنية، تهتز في الظلمة، ترتجف، ثم تهوي وتسقط، ويرافق سقوطها ذلك الضجيج الآخاذ، ويعقبه الغبار والموت واللعنة"[5].

وقد أشار الكاتب إلى ساعة بعينها لتكون الحد الفاصل بين زمان سام ماض وحاضر دنيء ساقط "يوم الثلاثاء 16 تشرين الأول، الساعة السادسة مساءا انتهى كل شيء[6].

مثلت الساعة السادسة هزيمة رجب، و فضيحة سقوطه وانهياره. لقد ارتبطت هذه الساعة بالسقوط، لكن لماذا اختار الكاتب هذه الساعة بالذات دون سواها؟ وهل في هذا الاختيار ما يشير إلى تاريخ بعينه لدى العرب؟.

اقترن الرقم "06" ستة في الواقع بتاريخ العرب جميعا، وليس فقط تاريخ رجب كفرد، فنكسة العرب قد وقعت في الشهر السادس، في حزيران وذلك سنة 1967، وهو تاريخ الهزيمة العربية النكراء، ذلك العار الذي لا يمحى. وقد امتدت الحرب ستة أيام، حيث ادعى العرب الانتصار في خمسة منها، وانهاروا في اليوم السادس وأقروا بالانكسار. والحقيقة أن التاريخ العربي هو تاريخ الهزائم، والانتصارات المشوهة التي ظلت ترتسم

كأحلام مستحيلة. فمنذ تنفيذ وعد بلفور والحرب سنة 1948، إلى فضيحة الأسلحة الفاسدة التي أبرزت الخيانة العربية إلى ثورة يونيو 1952، ثم هزيمة حزيران 1967 التي كسرت شوكة العرب. فجميعها خلقت تاريخا مشوها انعكس على الواقع، فغدا مسخا قبيحا، يعاني من انحطاط اللحظة الراهنة.

وقد استطاع منيف أن يخلق لنا من بطله "رجب إسماعيل"، شاهدا على عصر الهزيمة العربية، حيث أضحى "الروائي العربي المعاصر...اليوم هو المؤرخ الحقيقي لكثير من أحداث الأمة وقضاياها ... من خلال شخصيات مأزومة فكريا، ومهمشة اجتماعيا ومغتربة نفسيا، وهذه الشخصيات التي تعاني وتناضل من أجل نفي عذابات الذات وتحقيق أهداف المجتمع، صارت تستغل اليوم مكانة رفيعة في شرفات فنون القص"[7].

وقد ركز "منيف" على زمن خروج "رجب" من السجن، كونه يشكل انكسارا داخليا للبطل، وكانت لحظات سابقة للحظة التوقيع والسقوط، وقد كان الحدث "يوم الأربعاء 17 تشرين الأول... أول غيوم تمر فوق السجن، كانت هشة، صغيرة، تشبه الغبار، ومع مرور الدقائق تتمزق وتتلاشى، وكأن شيئا في داخلي يتمزق"[8].

و تمثل هذه الغيوم تمزق وتلاشي نفسية رجب، بعد خروجه من السجن على إثر توقيعه شهادة سقوطه، مقابل ترك العمل السياسي.

حدد زمن خروجه من السجن بيوم الأربعاء "يوم الأربعاء 17 تشرين الأول كنت أحزم أغراضي في الحقيقة البنية وأغادر السجن"[9]، كما اقترن أيضا بيوم سفره إلى الخارج، وهو نفس اليوم الذي عاد فيه إلى الوطن: "سأعود يوم الأربعاء القادم، سأعود على ظهر آشيلوس"[10].

فأصبح الأربعاء يوما مشؤوما عند العرب "إذ ارتبطت به كل هزائمنا ولذلك استحضر الكاتب التاريخ الواقعي، وهو يختار لرجب ساعة انهياره ويوم سقوطه، فقد سجن مدة خمس سنوات وفي العام السادس أفرج عه، ووقع على وثيقة العار على الساعة السادسة وخرج من السجن يوم الأربعاء، وبذلك يكون رجب إسماعيل الشاهد على عصر الهزيمة"[11].

لقد صمد رجب خمس سنوات كاملة، نتيجة مساندة أمه له، وحثها إياه على المقاومة وعدم الاستسلام، وقد كانت دائما تشجعه، وتحذره من التراجع "قالت أمي وهي تشد وجهها لكي تخنق الخوف والحنان: اسمع يا رجب، أنا أمك وأنت قطعة من لحمي، وليس في هذه الدنيا أحد يعزك مثلي... لكن لا تسمع كلام عمتك... ماذا تقول للناس، لأصدقائك، غدا إذا اعترفت وخرجت؟ الحبس يا ولدي ينقضي... افتح عينا تمر الأيام، وتبقى رافعا رأسك. إذا اعترفت فكلهم سيقولون خائن، ولا تستطيع أن تنظر في وجه أحد... خذ بالك يا ولدي"[12].

فكانت أمه تحثه على مقاومة التعذيب والصمود، وبالتالي عدم السقوط. على عكس أخته أنيسة التي دفعته إلى السقوط بعد موت أمه "لماذا مت يا أمي؟ لماذا؟ لماذا تركت أنيسة الضعيفة لتكون نافذتي على هذا العالم؟ آه لو أن لي أختا غيرها!"[13].

كان رجب يعي تماما أن موقف أمه يناقض تماما موقف أخته أنيسة، حيث نجد أن رجب وقع بين خطابين: خطاب الروح والإرادة، وخطاب الجسد. وبالطبع فلغة الروح والإرادة شكلتها الأم "كانت كلمات أمي حازمة مثل حبل الحرير، وهي تقول لي بعد أن ابتعدت عمتي: احذر يا رجب....الحبس ينتهي أما الذل فلا ينتهي. لا تقل شيئا عن أصدقائك...احذر أتسمعني؟"[14].

لقد مكنه رهانه على الروح من التحدي، والمقاومة، ولكن عندما راهن على الجسد، خانه الجسد، وسقط رجب مع سقوط جسده،فشكل هذا فارقا بين زمنين متناقضين زمن التحدي وزمن السقوط .

2- :البنية الزمنية لشرق المتوسط:

2-1- التداعي الزمني وتواتر الأحداث:

يعتبر الزمن أحد المباحث الرئيسية المكونة للخطاب الروائي، إذا لم يكن بؤرته فـ"الأحداث تسير في زمن، الشخصيات تتحرك في زمن، الفعل يقع في زمن، الحرف يكتب ويقرأ في زمن، ولا نص دون زمن"[15].

وتكمن براعة الراوي في قدرته على التحكم في الزمن المفترض لها بما يحقق تناسقا وانسجا ما داخل البناء الروائي. وعلى هذا الأساس اهتم الدارسون بزمن الرواية، وبرصد جل التقنيات التي ينتهجها السارد في ترتيب أحداث الرواية ومنهم "جيرار جينات **Gerrard Genette** ، الذي قام بمقاربة مقولة الزمن، من خلال المقارنة بين الزمن الكرونولوجي للقصة، وزمن السرد فهو يرى أن:" القصة مقطع زمني يتكرر مرتين، حيث يوجد زمن الشيء المروي، وزمن القصة (زمن الدال وزمن المدلول)، وهذه الثنائية لا تخص فقط ما يحدث من تشويه على مستوى القصة، فنجدها تختصر ثلاث سنوات من حياة البطل في كلمتين أو في مشاهد تركيبية للسينما، ولكنها أساسا تدعونا إلى التأكد من أن إحدى وظائف السرد هي تصريف زمن في زمن آخر"[16].

وما نلاحظه أن رواية شرق المتوسط قد استخدمت التداعي، عبر نسق زمني متقطع تجاوز الحبكة التقليدية، ومضى ضمن تيارات الوعي ونقلات الذاكرة إلى الوراء وتداخلات في ذهب رجب بين لحظات زمنية متفاوتة، حيث أن " الرواية في زمنها الذي كتبت فيه اقتضت شكلا قادرا على مواجهة الضغوط الحياتية الجديدة وقادرا أيضا على احتضان التحديات والضغوط"[17].

وينقلب نظام الحوادث المحكية ليتخذ مظاهرا وأشكالا مختلفة، انطلاقا من نقطة البداية التي يختارها السارد، والتي في ضوئها تنتظم باقي الحوادث الأخرى، ماضيا وحاضرا ومستقبلا " ولما كان لابد للرواية من نقطة انطلاق نبدأ منها، فإن الروائي يختار نقطة البداية التي تحدد حاضره، وتضع بقية الأحداث على خط الزمن من ماض ومستقبل، وبعدها يستطرد النص في اتجاه واحد في الكتابة غير أنه يتذبذب ويتأرجح في الزمن بين الحاضر والماضي والمستقبل"[18].

ونجد السجن من حيث هو مكان روائي، مكانا ضيقا ومحدودا، ولكن الرواية تتمتع بحرية في الزمان. والأمكنة الضيقة عموما تكسب الصراع الدرامي حدته وتعجل من انسياب الزمن وتزيده وضوحا، مما يجعل العمل الروائي شديد التوتر، والزمن في رواية " شرق المتوسط"، هو زمن داخلي ولا علاقة له بعقارب الساعة فالزمن في رواية السجن هو زمن نسبي يرتبط بالتداعيات والمشاعر الداخلية للسجين السياسي.

ونجد أن " الزمن الداخلي في رواية السجن ترك بصماته الواضحة على بنيتها الدرامية وشكل إحدى سماته الفنية، وذلك عن طريق تجاوز شكل النسق الروائي الكلاسيكي المألوف القائم أساسا على قانون السببية والمتصالح أصلا مع نمط العلاقات والمفاهيم الأخلاقية السائدة، كما تقول فرجينيا وولف"[19].

وقد سخر "عبد الرحمن منيف" قلمه لمعالجة ظاهرة السجن في الوطن العربي، وعن طريق روايته التي بين أيدينا، يجعلنا نغوص في عمق تلك الدهاليز والأقبية اللعينة، لنكتشف مدى معاناة السجين، ويعمل على فضح تلك الأنظمة المستبدة التي حولت الزمن العربي إلى زمن تعسفي، قاهر، ومستبد.

إنه زمن الشرق بعد التغيير العنيف الذي أحدثته سياسة النفط، داخل البلدان العربية. ونجد أم "رجب" تتساءل باستغراب عن تحول الزمن وتغيره: " ما بال الدنيا تغيرت ؟ أيامنا كان الناس يحبون بعضهم ولا يبحثون عن الشقاء، الآن الأخ ما يعرف أخاه، كل واحد يا نفسي ...ليس هذا كل شيء، القتل والسجون... الدنيا في نهايتها ولا يمكن أن تبقى هكذا"[20].

تحوّل الزمن، وأصبح زمنا تعسفيا، يساهم في خنق الذات أكثرا فأكثر. تلك الذات المأزومة، التي لم تتحرر من زمن السجون والتعذيب، ولعل أبرز مواصفات الزمن الروائي في " شرق المتوسط "، أنه زمن منكسر متقطع، وليس زمنا تصاعديا متواصلا. فالكاتب يبدأ عملية سرد الأحداث من نقطة زمنية محددة تتموقع وسط الرواية، وليس في نهاية أحداثها أو بدايتها.

حيث يبدأ الكاتب منذ لحظة ركوب " رجب إسماعيل "الباخرة أشيلوس التي تنقله إلى باريس محاولة منه في التخلص من دائه الجسدي، وشعور الندم والحسرة يمزقان أشلائه مع إحساسه بالندم والذنب على إثر ذلك التوقيع اللعين. فالزمن يبدأ في النص بين اللحظات التي تفصل بين زمن المنفي، أي ما بعد الخروج من السجن، وبين زمن التعذيب، أي زمن السجن.

وكما أشرنا فالبداية، كانت من الوسط ثم يواصل الزمن سيره باتجاه متكسر نحو المستقبل تارة، ونحو الماضي تارة أخرى، ويتشابك هذان الزمنان تشابكا معقدا، ومتداخلا، ليكشفا لنا عن مدى تأزم نفسية رجب البطل ومرارة الشعور بالسقوط والتردي.

فينفتح الفضاء السردي بداية على زمن الحاضر، وهو مرتبط دلاليا بنفسية رجب المتأزمة، ويفصل لنا هذا الزمن بين مرحلتين زمنيتين مر بهما البطل، زمن السجن والتعذيب، وفيه تبرز شخصية رجب المناضل، الصامد، وزمن ما بعد السجن، أو المنفى، وفيه تبرز شخصية رجب المنهزمة، التي تتجرع كأس الهزيمة، وعار السقوط.

ويرتبط الزمن بالفضاء ارتباطا عضويا، ليزيحا الستار عن شخصية "رجب" المحطمة بعد السقوط: "أشيلوس تهتز، تترجرج، تبتعد بحركة ثقيلة تشبه رقصة ديك مذبوح، والميناء عند الغروب يستقبل الأضواء الرخوة، يعلكها بسأم ثم يتركها تسقط..."[21].

ينطلق" عبد الرحمن منيف" بهذه العبارات في تأثيث روايته، ثم يعود بعد ذلك إلى الزمن الماضي موظفا تقنية الاسترجاع " فلاش باك "FLASH BACK والذي" يتمثل في إيقاف السارد لمجرى تطور أحداثه، ليعود لاستحضار أو استذكار أحداث ماضية "[22].

فيصبح الماضي هو الواقع الوحيد، الذي لا يمكننا تحويله، إنه قدرنا المحتم. وقد يكون هذا الماضي المسترجع "على شكل وخزات ضمير، وقد يكون على شكل اعتداد بالنفس لما حققته الشخصية من انجازات، بمعنى أنه قد يكون لذلك الماضي علاقته بمحاولة استشراف المستقبل، وقد يكون أحد الحوافز التي تدفع الشخصية لمحاولة تجاوز واقعها وصنع مستقبل جديد..." [23].

لا يستمر الحاضر في " شرق المتوسط" إلا لحظات، إذ سرعان ما يتوقف ليحل الماضي بذكرياته المثقلة على نفس "رجب"، حيث يعود إلى الوراء " ثلاثون صيفا وخريفا... ثلاثون ربيعا، أما الشتاء فقد جاء الآن، جاء في الثلاثين "[24].

لم يأت زمن الشتاء كالعادة بعد الخريف، وإنما انقلب الأمر فأتى بعد الربيع، والربيع هو زمن القوة، والتحدي، والشباب، إنه فصل الجمال، لقد كان "رجب" متمتعا بلحظات زمنه في السجن، لأنه كان يعي دوره، ويرى بأنه قوي أقوى من الصخر، أما الشتاء فهو الهزيمة، وبشاعة السقوط وقبحه، إنه يعكس شعور رجب البائس.

وبهذا نعتبر سنوات صموده من ربيع العمر، حيث تحمل " رجب " العذاب إلى جانب أصدقائه، وهذا ما جعل الشتاء يتأخر عن الربيع، ليصبح قرينا للخواء واللا جدوى والحزن، ويصفه رجب: " الشتاء القاسي يستلب الإنسان من الداخل يحوله إلى قصبة مفتوحة ويدفع إليه بلا توقف الأحزان والذكرى والشعور بالتفاهة "[25].

لقد ضعف جسد "رجب" فانهار وسقط، لقد تمزق شيء ما بداخله لقد انهار صموده الطويل، وتفتت معه روح العزم والنضال "مثل أوراق الشجر في بداية الشتاء: مضمرة ضعيفة حتى إذا صفعتها الريح تطايرت ثم ديست بالأقدام"[26]. ولم يحمل فصل الشتاء لـ" رجب " سوى معاني العجز والاستسلام، ويمضى خلال الرواية متذكرا الماضي، ماضي السجون والتعذيب، ويعجز عن استشراف المستقبل.

2-2- بنية النسق الزمني في شرق المتوسط:

يتوالى الزمن في شرق المتوسط ضمن بنية نسقية محكمة النسج ،تحدد بفترتين بارزتين: واحدة بدأت في النص من الوسط وتتعلق بالاعتقال والتعذيب، والثانية بدأت منذ بداية النص، وتتعلق بفترة المنفى، وبين الفترتين تكمن لحظات ثقيلة.

*زمن التعذيب:

يتوغل في ذات " رجب " ذلك الشعور القاتل بالخيانة، ومرارة السقوط بعد خروجه من السجن، حيث يبدأ في استرجاع الزمن الماضي ولحظات التعذيب. و" زمن التعذيب، جسد من خلال استخدام تقنية إسراع إيقاع الزمن في النص، وذلك من خلال استخدام القفز والتلخيص والإيجاز[27].

وسيتحضر رجب كل تلك اللحظات البائسة خلف أسوار السجن اللعين، حينما كان على متن "أشيلوس "، وعندما يتلقى سؤال تلك الفتاة عن رأيه في حفلة الغناء بالباخرة، يسترجع مباشرة حفلات السجن، التي كانت تقام في جوف الليل حيث " كانت الحفلة تبدأ في الثانية عشرة ليلا... كانوا يضربون الباب بأرجلهم الثقيلة، يصرخون في الظلمة... عصبوا عينيه... وضعوا رأسه في الكيس[28].

وحين ردد المهاجرون أغنياتهم على متن الباخرة، واختلطت أصواتهم، أراد رجب أن يغني، لكن تذكره للجلادين منعه من ذلك وأعجزه: " كانت أغنياتهم تهدر... كانت تختلط بالدماء، بالصراخ، كانوا يحبون أن يقوموا بالعمل وصوت آلة التسجيل يمزق الصمت الثقيل"[29].

واسترجاع الماضي ينم عن روح الحقد والكره من قبل الشخصية لما يحدث في الشرق من تعسف، وتعذيب، وظلم. وهي تنقم على الناس فيه لصمتهم على قبح الواقع، وفي نفس الوقت تحتقر نفسها نظرا

للسقوط و التردي، فالانهزام هو مبرر كاف للعودة نحو الزمن الماضي، حيث يقول رجب: " كانت إرادتي هي التي تقاوم، والآن ماذا بقي في ؟"[30].

ويلخص رجب فترة التعذيب عبر مناجاة نفسية داخل عيادة الدكتور فالي " لو قلت له إني محكوم إحدى عشرة سنة قضيت منها خمسا، لا لسبب، سوى أنني أردت، بالفكرة، بالكلمة، أن أجعل حياة الناس أكثر سعادة، لو قلت له هل يصدق "[31].

وعندما يشعر المبدع بخيانة فترة زمانية، فإنه يتجاوزها ويجعلها غائبة في النص، وقد طرح زمن التعذيب من نهايته، فقد غيب معظم لحظاته، ليسترجع بعضا من أشلاء هذا الزمن، في لحظات متقطعة عبر الرواية، وذلك كرد فعل على مخلفات ذلك الزمن، من عذاب وآلام، وهذا بمثابة انتقام من الزمن في حد ذاته، حيث أن " الإسراع في سير زمن نصي مطول وحذف معظم فتراته يدل على أن ذلك الزمن كان يعاني من فساد ما، فساد أثر في المكان، وفي الشخصية، مما حتم قتل ذلك الزمن، وذلك باختزاله وطرحه من خلال مؤشرات قليلة لا تجسده بقدر ما تدل على موته وعلى موقف النص منه[32].

ونجد الزمن يتسارع حين يرافق سقوط الشخصية، وهزيمتها، و"رجب" قد لاحظ هذا إذ "لم يحتمل التوقيع إلا ثانية صغيرة... حصل الأمر بسرعة "[33].

فالزمن لم يطل، كي يراجع "رجب" نفسه، أو يفكر في عدم التوقيع، وحتى "أنيسة" قد لاحظت ذلك، وتخوفت من هذا العدو الجديد الذي يمتلك قدرة رهيبة حيث أن "رجب كبر كثيرا في الشهور الأخيرة... وهو يكبر كل أسبوع"[34].

وعندما عاد "رجب" إلى البيت سارع زمن الحزن والكآبة، ليخيم على الجو لقد فقدَ الزمن سيرورته، وتجمد في الليلة الأخيرة لرجب في السجن التي كانت " كالولادة الميتة "، وقد توقف الزمن، حتى في الساعة التي كانت في يده ! إنها مؤامرة وضيعة يحوكها الزمن ضد البطل " رجب " فكيف استسلم "رجب"، وهانت عليه خمس سنوات من الصعود؟، كيف يمحي "رجب" ملامح وجهه الخائن؟ وكيف يقنع أصدقائه الذين ناضلوا معه وصمدوا ؟

نجد أن الزمن وكأنه يتواطأ مع الخيانة، ليصبح هو الآخر عدوا لرجب، والهروب من دائرة الزمن الخانقة، لا يكون إلا بالموت. حيث كانت السادسة هي ساعة نهاية " رجب " المناضل، وبها ينتهي زمن السجن والتعذيب، ليحل السقوط، والشعور بالانحطاط " السادسة... تلك الساعة اللئيمة التي جعلت نهايتي حقيقية، مؤكدة، نهائية[35] وتماثلها ساعة رجب اليدوية التي " أصبحت كحجر أسود مشلول ينبئ بالنهاية"[36].

يأتي السقوط، وينتهي كل شيء عندما " دقت السادسة، الآغا نظر إلى ساعته ثم إلى ساعة الجدار، ضرب الطاولة إشارة إلى أن المقابلة انتهت[37] يوم الثلاثاء 16 تشرين الأول الساعة السادسة مساءًا انتهى كل شيء"[38]، إنه السقوط والتردي، ويصف لحظات الخروج من السجن:" الأربعاء 17 تشرين الأول الساعة الحادية عشر، الشمس في الساحة دافئة "[39]، و" يوم الأربعاء 17 تشرين الأول، كنت أحزم أغراضي في الحقيبة البنية وأغادر السجن[40] ليعود مجددا إلى بيته، حيث العالم الخارجي، ويكون ذلك " قبل الثانية عشر كنت أطرق باب البيت[41].

إنها لحظات تاريخية حاسمة في حياة "رجب"، بين ماضي الصعود وحاضر السقوط، وطرحت هذه اللحظات مع بداية النص الروائي وهذا دليل على أهميتها وثقلها، فهي الأجدر بأن تكون مركز انطلاق الرواية، وحلقة وصل بين جميع الأحداث.

***زمن المنفى:**

يسافر "رجب" إلى فرنسا قصد العلاج، ويطارد ظل الحرية المفقودة وعند وصوله تبدأ تداعيات زمن المنفى. حيث يصبح الإنسان، خارج حسابات الزمن أو لا يعطي اهتماما للزمن، فرجب بثقل اللحظات التيه والضياع، وعبثية الوجود، ويشعر بالوحدة، ويطارده هاجس الجنون، وتسيطر عليه فكرة الخيانة، فيحتقر نفسه ويفقد الرغبة في الحياة ويفكر في الموت، لكن فكرة الكتابة والسفر إلى جنيف يجددان ثقته بزمنه الضائع.

يتخيل "رجب" في لحظات المنفى، أن كل من حوله يرتقب حركاته، إنه عميل أو مخبر فيصبح. الزمن كابوسا يطارده في يقظته، ويتذكر كلام الجلادين في شرق المتوسط: " اذهب إلى أي مكان تشاء، لدينا من الوسائل ما يجعلنا نعرف ما تفعل ... احذر، لا تظن أننا بعيدون عنك "[42].

ويواجه "رجب" لحظات الجحيم في منفاه، عن طريق الكلمة والمواجهة، لقد تعلم "رجب" من منفاه أمرا جديدا إنه الصمود في وجه الجلاد، فعندما عجز حاول أن يكتب، أن يراسل "أنسية" ويبث عبر رسالته رغبته في الكتابة، إنها سلاحه الجديد، ولتكن الرواية، هي السبيل إلى الخلاص، رواية تحكي عن العذاب اللا إنساني وتعري حقيقة السجون التعسفية، كاشفة وجه الشرق الحقيقي.

إنه يحاول تجسيد زمن التعذيب على الورق، في شكل روائي متعدد الأصوات، ولكنه يكتشف لعبة الجلاد الجديدة، وهي الابتزاز الحقير، عن طريق أخذ " حامد " كرهينة، فيحطم رجب زمن المنفى، ويعلن نهايته بقراره المتمثل في العودة مجددا إلى الوطن. لقد اقتنع بضرورة المواجهة، فلم يعد مهتما بجسده، وإنما أصبح يهوى زمن التعذيب، بل هو مبتغاه ليغسل عار السقوط: " سأصمت... سأضع الأوراق في مكانها، وسأعود إلى الوطن أنتظر أن يقبضوا علي، أن يعذبوني، أن يقتلوني بالرصاص... لم يعد الأمر يهمني، وأعتقد أنه سيكون شرفا لي لو فعلوا شيئا مما أتصوره[43].

وقد ارتبط الزمن في الرواية بالمكان، ليصبح امتدادا وعمقا له، ولكن الزمن يبدأ مع نهاية الرواية بانفتاحها على مستقبل ربما يكون، وذلك عندما تدفع " أنيسة " الأمور إلى نهايتها وهي تقول " لعل شيئا يقع"[44].

ويجب أن نشير إلى أمر هام في مسألة توظيف الزمن، وهو طرح اللحظة الزمنية، وهي محملة بزخم من الموروث الفكري والذاكرة الشعبية للتاريخ العربي. حيث جاء ذكر ليوم الأربعاء الذي اقترن بنهاية رجب، وهو يوم محمل بدلالة سوداء في ذاكرة الشعوب، وهو اليوم ذاته الذي انهزمت فيه العرب أمام إسرائيل في حرب حزيران 1967.

وفي جعل هذا اليوم المؤشر الزمني داخل النص، جاء كتنبؤ مسبق على هزيمة "رجب"، الذي كان قد وقع الوثيقة ليخرج يوم الأربعاء من السجن، ليسافر ثم يعود ويسجن مجددا ويعذب حتى الموت.

خاتمة:

لقد استطاع " عبد الرحمن منيف "، وببراعة فنية ملحوظة، أن يجسد لنا هذا الزمن بطريقة فنية بنائية، حيث نسج لنا خيوط هذا الزمن في شكل شبكة أخطبوطية، تتلاءم مع فضاء السجن الأخطبوطي الممتد من الشرق حتى الصحراء.

جاء الزمن في رواية " شرق المتوسط "، زمنا مثقلا بتشوهات الواقع، إنه زمن الهزيمة والعذاب معا، تلك الهزيمة التي تنحدر من هزيمة كبرى هي هزيمة الوطن العربي. إنه زمن تعسفي يناسب القمع والاضطهاد الممارس في السجون الشرق متوسطية، وقد امتد تشوه الزمن ليخيم على نفس الإنسان السجين، ويطارده حتى وهو حر، ليبعث في نفسه ذلك الشعور المأساوي، شعور الارتداد والسقوط.

وقد استطاع الكاتب بفضل تناوب السرد أن يواصل السرد بعد وفاة " رجب " البطل، وهو ما لم يكن ليتسنى له لو لم يستعمل ضمير المتكلم، ولو لم يعمد إلى اللجوء إلى تداول السرد بين موقعين. ونتيجة للطابع الإفضائي المسيطر على بنية الرواية، يغلب على سردها الجمل الصغيرة المشحونة بالغنائية العاطفية، سواء في افضاءات " رجب" أو إفضاءات أخته " أنيسة ". وقد غلب على جمل رجب الإفضائية روح التساؤل، وهو أمر طبيعي، لأن رجب كان يعاتب نفسه على السقوط.

أجاد "منيف" العزف على أوتار هذا الزمن المشوه، ليجعلنا ندرك مدى معاناة "رجب"، وصعوبة اللحظات التي مر بها، وعانى من ثقلها. وبذلك صنع لنا فضاءا زمنيا، يتحرك وفق جمالية سردية اقتضتها طبيعة العمل الروائي. حيث جعلنا "منيف" نعايش رجب تلك اللحظات المثقلة ، وفي انفتاح الزمن في آخر الرواية يضعنا منيف أمام سؤال مستقبلي تحريضي: كيف نقضي على القمع في الشرق المتوسط ؟ إنه تأكيد على ضرورة مواصلة الطرح التحرري للمثقف، فالثقافة تراهن على حرية الإنسانية.

الهوامش والإحالات:

(1) . محمود أمين العالم(د ت): أربعون عاما من النقد التطبيقي، السمة والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة، دار المستقبل العربي، د ط ،القاهرة- مصر، ص 57.

(2) . عبد الرحمن منيف (1991) : شرق المتوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط8 ، بيروت، ص 7.

(3) . المصدر نفسه: ص 149.

(4) . المصدر نفسه: ص 152.

(5) . المصدر نفسه: ص 149.

(6) . المصدر نفسه : ص 9.

(7) . طه وادي(1996): الرواية السياسية، دار النشر للجامعات المصرية، ط 01، مصر، ص 09.

(8) . عبد الرحمن منيف(1991) : شرق المتوسط ، ص 7.

(9) . المصدر نفسه: ص 9.

(10) . المصدر نفسه: ص 167.

(11) . صالح ولعة: البناء والدلالة في روايات عبد الرحمان منيف،أطروحة دكتوراه دولة، (مخطوط) ،قسم اللغة العربية وأدابها، جامعة باجي مختار، عنابة،2002، ص 110.

(12) . عبد الرحمن منيف : شرق المتوسط : ص 30.

(13) . المصدر نفسه: ص 30.

(14) . المصدر نفسه : ص 144.

(15) . صبحي الطعان: بنية النص الكبرى، مجلة عالم الفكر، العدد 23، الكويت 1994، ص 445.

(16). Gerrard Genette(1972) : Figure III. Edition du seuil. Paris. P 77

(17) . رزان محمود إبراهيم(2003) : خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق، ط1 ،مصر، ص 127.

(18) . عبد العالي وطيب: إشكالية الزمن في النص السردي، مجلة فصول، مجلد 12، العدد 2 ،صيف 1993، ص 132.

(19) . نزيه أبو نضال: السمات الفنية في رواية القمع العربية، مجلة فصول، مجلد 16، عدد 03، شتاء 1997، ص 122.

(20) . عبد الرحمن منيف(1991) : شرق المتوسط ، ص 127.

(21) . المصدر نفسه: ص 7.

(22) . عبد العالي وطيب: إشكالية الزمن في النص السردي، ، ص 134.

(23) . أحمد حمد النعيمي: إيقاع الزمن في – الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، لبنان،ط1، 2004، ص 32.

(24) . عبد الرحمن منيف(1991) : شرق المتوسط : ص 7.

(25) . المصدر نفسه، ص 140.

(26) . المصدر نفسه، ص 169.

(27) الطعان صبحي(1995): عالم عبد الرحمان منيف الروائي، دار كنعان للدراسات والنشر، ط1،دمشق ، ص 107.

(28) . عبد الرحمن منيف(1991) :شرق المتوسط ،ص 93.

(29) . المصدر نفسه، ص 79.

(30) . المصدر نفسه، ص ص 145 -146.

(31) . المصدر نفسه، ص 152.

(32) . صبحي الطعان: عالم عبد الرحمن منيف الروائي، ص 108.

(33) .عبد الرحمن منيف(1991) :شرق المتوسط، ص 65.

(34) . المصدر نفسه، ص 50.

(35) . المصدر نفسه ، ص 35.

(36) . المصدر نفسه ،18.

(37) . المصدر نفسه: ص 11.

(38) . المصدر نفسه ، ص 9.

(39) . المصدر نفسه ، ص 11.

(40) . المصدر نفسه ، ص 9.

(41) . المصدر نفسه ، ص 11.

(42) . المصدر نفسه ، ص 161.

(43) . ا المصدر نفسه ، ص 170.

(44) . المصدر نفسه ، ص 176.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب :

- محمود أمين العالم(د ت): أربعون عاما من النقد التطبيقي، السمة والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة، دار المستقبل العربي، د ط ،القاهرة- مصر،

- عبد الرحمن منيف (1991) : شرق المتوسط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط8 ، بيروت

- طه وادي(1996): الرواية السياسية، دار النشر للجامعات المصرية، ط 01، مصر
-Gerrard Genette(1972) : Figure III. Edition du seuil. Paris.
- رزان محمود إبراهيم(2003) : خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق، ط1 ،مصر.
-. أحمد حمد النعيمي(2004) : إيقاع الزمن في – الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1،بيروت، لبنان,
الطعان صبحي(1995): عالم عبد الرحمان منيف الروائي، دار كنعان للدراسات والنشر، ط1،دمشق .

المجلات :

- صبحي الطعان: بنية النص الكبرى، مجلة عالم الفكر، العدد 23، الكويت 1994،
- عبد العالي بوطيب: إشكالية الزمن في النص السردي، مجلة فصول، مجلد 12، العدد 2 ،صيف 1993

الرسائل الجامعية:

- صالح ولعة: البناء والدلالة في روايات عبد الرحمان منيف، أطروحة دكتوراه دولة، (مخطوط) ،قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة باجي مختار، عنابة،2002.